فى المغـــــرب الاقصى

بقلم السيد محمد سعيد الزاهرى

المغرب الأقصى أم مراكش ؟

أما الكتاب فى مصر وفى غيرها من بلاد المشرق ، فانهم يطلقون كلمة « مراكش » على المغرب الأقصى ، ثم تابعهم على ذلك حملة الأقلام فى الجزائر وتونس ؛ وأما ادباء المغرب الأقصى فانهم يطلقون « مراكش » على المدينة لا على عموم القطر ، وهم يكرهون منا أن نسمى بلادهم «مراكش» وأن نسميهم « مراكشيين » ، بل يريدون منا أن نسميهم « مغاربة » وأن نسمى بلادهم باسم « المغرب الأقصى » ، وقالوا إن كلمة « مراكش » بمعنى القطر هى تعريب لكلمة (MAROC) الفرنجية ، والحق أن هذه الكلمة الفرنجية هى التى نقلت عن العربية بلفظها ومعناها فقد كان الأدباء العرب يطلقون كلمة « مراكش » على القطر كما يطلقونها على المدينة ، وهناك أكثر من كتاب وضعه الأولون فى « أخبار الدول المراكشية » وهم يعنون « أخبار دول المغرب الأقصى » ؛ وأنا شخصياً أستحسن أن أسمى « المغرب الأقصى » باسم « مراكش » المدينة التى كان لها على عهد دول الاسلام شأن عظيم ، والتى ماتزال إلى الآن من أكثر مدن المغرب الأقصى سكاناً وعمراناً ، والتى هى من أجمل العواصم التاريخية لتلك البلاد السكرية ، كما أسمى المغرب الأوسط باسم « الجزائر » والمغرب الأدنى باسم « تونس » ؛ ومع ذلك ، ومع أننا كلنا « مغاربة » ، فانى أسمى « المراكشيين » باسم « المغاربة » ، وأدعوهم بأحب الأسماء اليهم ، وأدعو بلادهم « المغرب الأقصى ».

وهران (مراكش)!

لو أن كاتباً مغربياً (من الجزائر أو تونس أو المغرب الاقصى) كتب وقال إن مدينة الاسكندرية فى فلسطين ، أو إن بيروت هى فى مصر أو نحو ذلك ، لأكبر الناس منه هذا الخلط وعجبوا من أمره ، كذلك نحن المغاربة عجبنا وتأسفنا جداً عندما رأينا فى هذه الأيام جريدة عربية من أكبر الصحف فى بيروت تزعم أن مدينة وهران فى مراكش (المغرب الأقصى) ، وعندما رأينا أيضاً جريدة كبرى من أمهات الصحف فى مصر تنشر خبراً من أخبارها قالت عنه إنه جاءها من تونس بالمغرب الأقصى ! ! وهكذا كثيراً مانرى الكتاب والصحفيين فى مصر والشام والعراق وسائر بلاد العرب إذا تكلموا عن بلاد المغرب (الأقصى والأوسط والأدنى) خلطوا فى كلامهم خلطا فاضحاً ، حتى كأنهم يتكلمون عن مجهل من المجاهل التى لم تطأها قدم

إنسان ، فتارة يحسبون أن وهران فى مراكش ، وأن تونس فى المغرب الأقصى ، وتارة يحسبون أن الدار البيضاء هى من مدن المملكة التونسية ؛ ومن العجب أن إخواننا فى مصر والشام وغيرها يحسنون الكلام عن بلاد الانكليز أو فرنسا أو هولندا ، ويعرفون جغرافية البلاد الأوروبية وغيرها ، ثم هم مع ذلك يجهلون جغرافية بلاد المغرب جهلا يكاد يكون تاماً مطبقاً ، وليس من اللائق أن يجهلوا أو يتجاهلوا بلاداً تربطها ببلادهم جميع الروابط والصلات ، وليس فى بلاد المغرب كلها من يجهل مابين هذا المغرب العربى وبين الشرق العربى من رابطة العروبة والاسلام ، ولا ما بينهما من صلات فى النسب والتاريخ وغير ذلك ، ولا من لايعتقد أن هذه الأمة المغربية هى شعبة من الأمة العربية الكبرى بما فيها مصر ، أو أن هذه البلاد المغربية هى جزء لايتجزأ من بلاد الاسلام ، وهذا هو مايعتقده العامة والخاصة فى الجزائر ، وتونس ومراكش.

أصدق كتاب عن «فاس»

ولعل كتاب الأخوين (طارو) هو أصدق كتاب باللغة الفرنسية عن فاس أو هو أقرب ماكتب عنها إلى الصدق ، وأدنى الى الصواب ، فقد وصف فيه كاتباه الحياة المغربية بفاس وصفاً صادقا عميقا تغلغل من المجتمع الفاسى الى الدخائل والأعماق ، وجليا فيه الحالة الاجتماعية هنالك جلاء واضحاً مبيناً ؛ ولكن هذا الأمر لا يكون إلا بعد الدراسة الطويلة ، والبحث العميق ، والمسيو جيروم طارو لم يلبث فى فاس — وهو بمفرده — إلا أياما قليلة لاتكفيه لدرس نفسية الفاسيين ولا للاطلاع على عاداتهم وأخلاقهم ، وهو بعد لا يعرف اللغة العربية التى يتكلمها أهل فاس ولا يتكلمون سواها ، فكيف أمكنه أن يخرج للناس باسمه وباسم أخيه (الذى لم ير فاساً فيما نعتقد) عن فاس هذا البحث الوافى ، والدرس المستفيض ؟ لقد كنت فى حيرة شديدة من هذا الأمر الذى لا يستطيعه كاتب مهما أوتى من العبقرية والنبوغ ، ثم عرفت أن رجلا عربياً مغربياً من الجزائر لبث فى فاس أكثر من عشرين سنة وأصهر إلى بيت كريم من بيوتات فاس فتزوج بفتاة من بنات النعيم هنالك ، وهو اليوم من تجار فاس المشهورين ، قد كتب عن فاس كتابا وصف فيه مشاهداته ، وما رأى فى فاس من أخلاق وعادات وصفاً مستوعباً دقيقاً تغلغل إلى دخائل تلك الحياة وأعماقها... ثم أحجم عن نشره باسمه ، لأن فيه أموراً لاتسر أصهاره وإخوانه وأصدقاءه من الفاسيين ، ولما لقيه المسيو جيروم طارو فى فاس — وهو كاتب فرنسى كبير — تعرف إليه ، وأهدى إليه هذه المذكرات أو مسودات هذا الكتاب ليقتبس منها مايشاء ، فتناول الأخوان (طارو) ذلك بشىء غير قليل من التحوير ، وكساه من فصاحة الأسلوب وسحر البيان أجمل الحلل وأبدعها ، فاستحقا بذلك أن يكون هذا الكتاب لهما لا لغيرهما ، وقد قالت العرب الأولى : « إن من استرقه ، فقد استحقه » (١) :

(١) على أن لطارو فيما كتبه عن فاس هنات وهفوات لاتخلو من سوء نية .

حوار طريف:

وقعت بين المسيو جيروم طارو وبين « شيخ الجماعة » فى فاس محاورة طريفة لم يذكرها طارو فى كتابه عن فاس ، وهو أحوج ما يكون إليها ، وقد ذكر محاورات جرت له مع وزير العدلية وغيره فيما كتب عن الرباط ؛ وهى محاورات حول « دوران الأرض » أنكر فيها معالى الوزير المغربى ، أن تكون الأرض هى التى تدور ، وأتى بحجج على ذلك هى غاية فى السخف والتفاهة مثل قوله : لو كانت الأرض هى التى تدور كما يقال لسقط كل من عليها من إنسان وحيوان ودور وقصور ، ولهوى ذلك كله فى مكان سحيق ، وقوله : لو كانت تدور لتهدمت المنازل والبيوت ولشعرنا نحن بذلك ، وما إلى هذا من الحجج والبراهين ...

وهذه المحاورة التى جرت بين طارو وبين « شيخ الجماعة » فى فاس هى من هذا القبيل ، ولو أن طارو فهمها على وجهها لطار بها فرحاً وسروراً ، ولوجد فيها لقلمه موضوعا خصيبا ؛ ولكن الترجمان الذى كان بينهما لم يكن ينقل إلى الأديب الفرنسى أقوال شيخ الجماعة نقلا مطابقا بل كان يحرف الكلم عن مواضعه ، وكان يرد على أسئلة طارو بأجوبة من عنده هو ، ويهمل أجوبة الشيخ عمداً ولا يترجمها .

و « شيخ الجماعة » فى فاس هو شيخ جامع « القرويين » ، وقد أراد طارو أن يجتمع به وأن يراه ، فطلب إلى ترجمان موظف هنالك أن يجمعه بشيخ الجماعة فوعده هذا الترجمان خيراً ؛ قال الترجمان (وهو الذى نروى عنه هذا الحديث) : لا أكتمك أنى فكرت فى مكان الاجتماع فوجدت أن فى هذا الأمر صعوبة وعسراً ، فهل أجمعهما فى فندق (الترازا — تلانتيك) الضخم حيث يقيم المسيو طارو ؟ وهذا أمر مستحيل لا يكون بحال ، لأن الشيخ رئيس « القرويين » يرى أنه إن دخل هذا الفندق أو فندقا آخر مثله أو أى مكان من هذا النوع ، فكأنما عصى الله ربه ! أم هل أجمعهما عند الشيخ الرئيس فى مكتبه الخصوصى ؟ وهذا أيضا لا يمكن ، لأن الرئيس ليس له مكتب بالمرة لا خصوصى ولا عمومى ؟ قال الراوى : ثم اهتديت أخيراً إلى حل المشكل ، وجمعتهما فى مكتبى أنا ، قال : وحضر طارو أولا ثم جاء الشيخ الرئيس فقام الأول إجلالا له وللسلام عليه ، وحسر قبعته من على رأسه ، ومد يده يصافح الشيخ ، فمد هذا بدوره إليه يده متثاقلا كارها مشمئزاً كأنه يخاف أن يأثم بمصافحة هذا « النصرانى » !

وقال طارو للشيخ : إننا وإن كنا مختلفين فى الجنس واللغة ، فان بينى وبينك غير ذلك رابطة أخرى هى أفضل الروابط وأمتنها ، وهى رابطة العلم والأدب ... قال الراوى : فكره الشيخ الرئيس هذا الكلام وقطب فى وجه الزائر لأنه يعتقد أن من لا يقرأ « مختصر خليل » فى الفقه المالكى لا يكون عالماً ولا أديباً ، أى أن العلم والأدب فى نظر « شيخ القرويين » هما « مختصر سيدى خليل » فقط لاغير ، وسأله طارو عن سير التعليم فى « القرويين » وهل

يسير على وفق المناهج والأنظمة المتبعة الآن فى الأزهر الشريف؟ قال الراوى: وكان طارو قد زار مصر، وحظى بمقابلة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر، وعرف حالة التعليم هنالك، فأجاب الشيخ الرئيس بأن التعليم فى « القرويين » على غاية ما يرام يسير على أحدث المناهج، وأفضل الأساليب قال الراوى: والواقع أنه لا نظام فى « القرويين » البتة، بل ولا يكاد يوجد فيه إلا تعليم عقيم لا فائدة منه ولا خير فيه، والشيخ لا يفهم ما هى المناهج ولا ما هى الأساليب لا فى التعليم ولا فى غير التعليم؛ ولما قام « الشبان المسلمون » وجماعة الاصلاح الاسلامى فى مراكش يطالبون باصلاح التعليم وتنظيمه فى « القرويين » كان هذا الشيخ الرئيس أول من أفتى بكفرهم!... وسأله طارو عن أساتذة « القرويين » هل يحملون شهادات علمية من جامعات معترف بها؟ وهل يتقاضون مرتبات شهرية كافية؟ فأجابه الشيخ بأنهم يحملون شهادات علمية من نفس « القرويين »، وبأنهم يتقاضون مرتبات شهرية كافية لا يطلبون فوقها مزيداً؛ قال الراوى: والحقيقة أنه ليس فى « القرويين » أى نوع من أنواع الامتحان بالمرة، وليس فيه أية شهادة علمية، لا ابتدائية ولا غير ابتدائية؛ ولا ينقسم طلبته إلى طبقات وأقسام ولا إلى فرق وفصول، وإنما يقرأون غالباً « مختصر خليل »، يجتمع عليه الصغير المبتدىء والكبير المنتهى فى آن واحد؛ وأما المرتبات فان من هؤلاء الأساتذة المدرسين من يتقاضى شهرياً مرتباً مبلغه خمسون فرنكا فقط، وأوفرهم جراية من يتقاضى ما مبلغه مائتان من الفرنكات شهرياً؛ على أن هذه المبالغ لم يكن يتسلمها مستحقوها بانتظام، فربما تأخرت، وربما « هلكت » فى الطريق. ومضى طارو يسأل الشيخ الرئيس أزيوازن له بين « القرويين » وبين « الأزهر » وبين حالتى التعليم فيهما؛ فأجابه الشيخ بأن التعليم فى « القرويين » هو خير وأفضل من التعليم فى « الأزهر » فقال طارو: وما هو وجه هذه الأفضلية؟ فاحتد الشيخ الرئيس وكاد يتميز غضباً وغيظاً؛ وجمع يده اليمنى بقوة وجعل يدق بها كف يده اليسرى، ويمزقها مزقاً عنيفاً وهو يقول: « التدقيق، التدقيق، التدقيق » قال الراوى: ولا أكتمك أنى حرفت كلمة الشيخ هذه، ولم أترجمها لطارو، كما حرفت غيرها من أجوبة الشيخ وأقواله لما رأيت فيها من عدم اللياقة.

وهنا لابد أن نذكر أن هذه الطاورة قد وقعت منذ أعوام؛ وأما اليوم فقد صدر ظهير سلطانى (مرسوم ملوكى) بتنظيم التعليم فى « القرويين »، وبجعله على ثلاث درجات، وبتصنيف المدرسين والمعلمين إلى ثلاثة أصناف: يتقاضى المدرس من الصنف الأول مرتباً شهرياً مبلغه ألف وخمسمائة فرنك، ويتقاضى المدرس من الرتبة الثانية ألفاً ومائتين من الفرنكات، ويتقاضى الثالث ألف فرنك. وتشرفت فى هذه الأيام بمقابلة صاحب المعالى وزير معارف المغرب الأقصى، وسألت معاليه عن هذا « الظهير » هل نفذ فعلا؟ وما هى النتائج التى تنتظر منه؟ فقال: « إن المراد من هذا الظهير هو تحسين مرتبات الشيوخ المدرسين فى كلية القرويين، وهذا

هو أهم ماحصل لحد الآن ، وما سيحصل من سريان العمل بهذا الظهير... » ، وهذه غاية شريفة جداً لأنه ليس من الحق أن يكون رجال الشرطة وصغار الموظفين بالايالة الشريفة يتقاضون مرتبات وافرة ضخمة ، ثم لا يتقاضى علماء القرويين إلا مرتبات تافهة ضئيلة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وهذا ماجعل الناس في المغرب الأقصى يقبلون على المدارس الفرنسية إقبالا كثيراً ، وجعل بعضهم يعتقدون أو يزعمون أنه لافائدة في العربية ولا في تعلمها.

« مختصر خليل » : وهذا الكتاب في الفقه المالكي له قيمة عظيمة عند الناس في بلاد المغرب كلها ، وربما قدسته العامة تقديساً ، وجعلته بمنزلة القرآن الكريم ؛ و« العالم » أو « الأديب » الذي لا يبرز في استظهار « مختصر خليل » وفي حفظه ، لا يكون له عند العامة وأشباه العامة من طلبة الجزائر ومراكش أدنى قيمة ولا اعتبار ؛ وقد يبلغ الرجل رتبة عالية في العلم والأدب ويعترف هؤلاء الناس بفضله وعلمه ، وتكون له شهرة واسعة يتمتع بها بين مختلف طبقات الناس ، ومع ذلك فاذا تمكن أحد خصومه من أن يرميه بأنه « لا يحب مختصر خليل » أو بأنه « لا يهتم بهذا المختصر » كان ذلك وحده كافيا لاسقاطه من قمة الشهرة والمجد إلى الحضيض الأسفل من المقت والاحتقار ؛ ولهذا « المختصر » أنصار ومريدون في الجزائر وتونس ومراكش يسمون أنفسهم « خليليين ».

وقد بلغ من عناية الناس بهذا المختصر أنهم جعلوا له في جامع « القرويين » « حزابة » كما للقرآن « حزابة » ؛ و« الحزابة » هي جماعة من حفظة القرآن الكريم أو من حفظة « مختصر سيدي خليل » يجتمعون كل يوم في وقت معين ، ويتلون معاً (حزباً) أو (حزبين) (جزء) من القرآن أو من (مختصر خليل) عبادة وتبركا ، ثم يهدون ثواب ذلك إلى أرواح أهل الخير الذين وقفوا أوقافا خيرية ينفق ريعها على هؤلاء (الحزابة).

ومن العجيب أن (حزابة مختصر خليل) في (القرويين) يتناولون مرتبات شهرية هي أوفر وأسنى من مرتبات الكثيرين من (حزابة) القرآن الكريم !؟

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهري

****
****

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر ؟